مدخـــــل إلى فاعليـــــة التأويــل في النص

Introduction to the effectiveness of interpretation in the text

د(ة).سامية نعاس*

تاريخ الإرسال: 2022/06/27	تاريخ القبول: 2023/01/17	تاريخ النشر: 2023/05/10

الملخص:

تسعى الدراسات النقدية عبر أزمنة متتابعة لتأسيس مداخل متعددة لاستكناه ما تنطوي عليه النصوص الأدبية من قيم شكلية ومضمونية، بغية إغاثة القارئ على فهمها وتقدير قيمتها بوصفها أثراً إنسانياً ذا رؤية تعين على فهم العالم. وقد ترجحت تلك الدراسات بين مناهج يصعب إحصاؤها، غير أنّ الوعي النقدي بدا مؤخراً يدرك أهمية مغازي النصوص ومقاصد مؤلفيها لتظهر على السطح فاعلية التأويل في عملية قراءة النص، ومعروف أنَّ التأويل يستدعي إصغاء كثيراً لما يقوله النص في ظاهرة، وصولا إلى معرفة ما يقوله في باطنه إنّها رحلة قارئ النص من المباشر إلى غير المباشر، ومن السطح إلى الأعماق،ومن المثبت إلى المحذوف،ومن الحاضر إلى الغائب.ومن استراتيجيات التأويل العقل الفلسفي، فهوملهم الفهم، وفعل التأويل هو ممارسة عقلية ونشاط تفكيري داخل النص المؤول لأنه أحد المؤثرات والبدايات المحركة للعقل والفهم. لأنّ النص لا يتوقف عن كونه محلا لتوليد المعاني واستنباط الدلالات ولا مجال لأحد أن يقبض على حقيقته، فالنص يثير عددا من التأويلات غير منتهية، وبالتالي لا يمكننا أن نمارس الاعتباطية في التأويل ؛ لأنّ إنتاج التأويل قد يتعدد للنص الواحد ولا يمكن لنا أنّ نحصر المعرفة في القانون والقاعدة الواحدة .وبالتالي لا تأويل نهائي، لأن قدرات العقل على المحاججة والبرهان متعددة، وليس التأويل إيجاد معنى لشيء لم يكن له معنى، وليس هوكذلك نصب دلالة لموضوع يبحث عن دلالته وإنّما هوإحالة من دلالة إلى أخرى، وما نستنبطه أنّ إعادة تأويل معان سابقة وتأويل المعاني مجددا لا معنى له سوى أنّ الفهم يتجدد والعقل يبرهن دوما وينتج دائما، والقارئ بإمكانه أن ينتج مدا من القراءات أوالتأويلات تكون بدون حدود.

الكلمات المفتاحية: التأويل، القراءة، الفهم، العقل، النص.

* أستاذة مؤقتة بالجامعة الجزائر 02 أبوقاسم سعد الله

naas.samia02@gmail.com/

Abstract:

Critical studies seek, through successive times, to establish multiple approaches to capture the formal and substantive values of literary texts, in order to help the reader understand and appreciate their value as a human impact with a vision that helps to understand the world. These studies have fluctuated between methods that are difficult to enumerate, but the critical awareness recently seemed to realize the importance of the meanings of texts and the intentions of their authors to show on the surface the effectiveness of interpretation in the process of reading the text. It is the journey of the text reader from the direct to the indirect, from the surface to the depths, from the confirmed to the omitted, and from the present to the absent. Among the strategies of interpretation is the philosophical mind, it inspires understanding, and the act of interpretation is a mental exercise and intellectual activity within the interpreted text because it is one of the influences and The beginnings of the movement of the mind and understanding. Because the text does not cease to be a site for generating meanings and deducing connotations, and no one has the opportunity to grasp its truth. The text raises an endless number of interpretations, and therefore we cannot practice arbitrariness in interpretation; Because the production of interpretation may be multiple for a single text, and it is not possible for us to limit knowledge to the law and a single rule. Therefore, there is no final interpretation, because the mind's abilities to argue and prove are multiple, and interpretation is not to find a meaning for something that had no meaning, and it is not likewise a sign of a sign. It is a subject that searches for its significance, but it is a referral from one signification to another, and what we conclude is that re-interpreting previous meanings and reinterpreting meanings has no meaning except that the understanding is renewed and the mind always proves and always produces, and the reader can produce a range of readings or interpretations that are unlimited.

Key words:*interpretation, reading, understanding, the mind, Text.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: سامية نعاس naas.samia02@gmail.com

تومئ فاعلية التأويل في عملية قراءة النص إلى ذلك الجهد اللغوي والفكري والثقافي الذي يقوم به المفكرون ونقاد الآثار الفنية ليعطوا النصوص التي بين أيديهم معاني لا تقدمها تلك النصوص من الوهلة الأولى، لأن التأويل ينتهج ملاحقة المستشكل والخفي، وهوطريق العلم في تعامله من النصوص، إذ به يصير المؤول ركنا أساسيا في مشاركة دلالة النصوص التي لم يسبق له أن تعامل معها إلا في لحظات تعامله معها يكشف مجاهلها ويقرأ ما يريد وما يقرأ في النص، فيعقل ما لم يعقل من المعنى ومن حيث يظن اللامعنى ويستنبط المجهول من المعلوم.

ليس التأويل العلم بما هومعلوم مسبقا، بل هوالعلم بما لا يعلمه الإنسان وهكذا لا يغدوعلما، بل تعليما ينبجس منه دلالات متجددة "إن التأويل هوالانتماء الذي لا يسمع عندما يظهر نداء التأويل وتسميته وكلامه، فالتأويل يتكلم لنفسه، وهونفسه معناه الخاص به، ومرجعيته الخاصة به، ونصه الخاص به "[1].

وتبعا لذلك إنّ التأويل هوالذي يجدد التساؤل ويثير السؤال في القراءة التأويلية نفسها حتي تطلب هي نفسها التأويل.

مما لا ريب فيه أنّ الأصل في القراءة التأويلية هوانتقال اختياري من الذات إلى الآخر (المؤلّف) من خلال النص، فالمؤلِف وإن كان غائبا فهو مُمَثِّلٌ بلغته ومعانيه وأفكاره ومقاصده وبالتالي على القارئ استخراجها واستكشافها، فهذه القراءة هي مزيج بين مواقع محدود وغير محدودة، حيث هنالك دائما أشياء خفية أومجالات فارغة، فجوات، بياضات أوموطن الشك، كل هذه النقاط تحتاج مشاركة حذقة وناضجة وفطنة وذكية من طرف القارئ، كل هذا من أجل التحليل والتحويل الغموض النصية الحاجبة للرؤية إلى مجال مفتوح ومستقر وممهّد، لا يوجد فيه منعرجات أوانتوءات أوأبعاد وزوايا غير مرئية، وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الاستكشاف والمعاينة.

لا بد أن يقف الفهم كوسيط بين النص وعملية التأويل على قدر من التأمل والتبصر،حتي تتيح له طريقة مساءلته ومحاورته للنص الكيفية المناسبة للولوج إلى نص معين، وفق معطياته، وعليه فما هوالفهم وكيف يتحقق ؟ وما مدى أهميته في بناء المعنى وفاعليته في القراءة التأويلية ؟

يعد الفهم فعل عقلي وروحي، لأن الحقائق المفهومية لا بد أن تدرك بالعقل وتستشعر بالروح –التجاوب الإيجابي والتفاعل النفسي- وفي هذا الصدد يروي "الماوردي" أن العلوم مطالبها ثلاثة أوجه: "قلب مفكر ولسان معبر وبيان مُصَوِّر :فإذا العقل سمع الكلام سمعه فهم معانيه بقلبه، وإذا فهم سقطت عنه كلفة استخراجها وبقي عليه معاناة حفظها واستقرائها "[2].

فمن شروط الفهم الانتباه والاهتمام واستحضار القوى العقلية التي تسمح بالفهم والتفهم. ولكي يتحقق هذا المطلب لا بد من امتلاك الأدوات الضرورية للفهم، مثل امتلاك اللغة ومعرفة القواعد النحوية والصرفية والبلاغية التي يتأسس عليها التواصل

تتحقق عملية الفهم اعتمادا على التعرف والتذكير لأن التعرف يستعرض المعلومات الجديدة عبر التذكير وهكذا يكون للسياق الانفعالي دور في فهم النصوص، أي السياق الذي تُقرأ فيه أويحصل الاستمتاع فيه لها، فالفهم الحقيقي يبدأ لحظة فهم الكلمات وتحليل الجمل المتتالية، ثم تحويل الجمل إلى سلسلة من التصورات أوالقضايا التي تخزن في الذاكرة، وعليه يقسم "فان ديك Van dijk " الذاكرة التأويلية إلى قسمين هما : ذاكرة قصيرة المدى وطويلة المدى، فالمعلومات تنتقل من ذاكرة قصيرة المدى إلى ذاكرة طويلة المدى عندما تمتلئ الأولى [3]، إذا المعلومات التي تخزّن في ذاكرة قصيرة المدى عند امتلائها يتم تخزين المعلومات في ذاكرة طويلة المدى، ويُيَسرّ الترابط البنيوي بين المعلومات لاحتفاظ بها فتعلق المعارف والتصورات ببعضها البعض يسمح بتذكرها

بسهوله ؛لأن الفهم يحركه الاستعداد الإدراكي والاحساس بقيمة المعلومة ومدى اهتمام المتلقي بفهم النص [4].

مما تم ذكره يتضح أن بين الذاكرتين تعاون وتفاعل عبر المد بالمعلومات أوالمحوأوالتعديل أوالإثراء وما يتعلق بتأويل النصوص، ومحاولة فهمها يجب علينا استخدام المعارف عبر مجموعة من القدرات هي:

- فهم النص انطلاقا من معرفة مسبقة.
- بناء معنى أولي ثم اعتماد على التعديل والحذف مع تطور الفهم.
- الانطلاق من تمثيلات ذهنية مبنية مسبقا وفهم النص تبعا لها.
- مراعاة السياق الاجتماعي أثناء الفهم في معاييره وحوافزه وأهدافه.
- عبر عملية الفهم يملأ المتفهم البنيات الفارغة في النص المقروء بمعارف مسبقة مخزنة في الذاكرة.

إذن الفهم؛ هومجموعة من العمليات الإدراكية التي نقوم بها، لاكتشاف حقيقة ممكنة كامنة في النص موضوع القراءة، أوفي ظاهرة من الظواهر التي حولنا، أوهوإعداد مشاريع في القراءة تنسجم مع موضوع الفهم.

وهذه المشاريع قابلة للتصحيح أوالتعديل ؛ فالذي يحدث ما هوإلا انصهار لآفاق المعنى الصحيح، وآفاق الحدوس القرائية ، فيحصل التجانس والتوافق بين العناصر القابلة للانسجام مع بعضها البعض، ويتم ترك وتجاوز ما لم تدعمه المعطيات النصية. ولذلك فالفهم هوتوافق بين معطياتنا الجاهزة، وبين حقيقة تتكون في قلب عملية التأويل،" وأن تفهم معناه أن تُؤوِل، وبالتالي فالتأويل هوالشكل الظاهر للفهم " [5].

يعمل الفهم على تقليص المسافة بين الذات القارئة وموضوعها، عبر تذويب الآفاق المختلفة وإزالة الحواجز بينهما ؛ ثم إننا لا نفهم نصا بأكبر قدر من الموضوعية إلا

إذا وضعناه في سياقه المحدود[6]. كما أن الفهم ينبني على إجراء الاحتفاظ وإجراء المسح؛ حيث يتم الاحتفاظ بما وجدنا له مدعّما نصيا أوسياقيا، أما الوحدات الدلالية الافتراضية التي تظهر أقل أهمية، أوبعيدة أوخاطئة فإنها تُمسَح لتحل محلها وحدات جديدة تنشأ لحظة الفهم، فتعبر المسار نفسه إلى أن تنتهي القراءة بمجموعة بنيات دلالية، منها ما يعتبر أساسا من وجهة نظر القارئ ومنها ما هوثانوي، ومحصل عملية القراءة يعكس في كل الأحوال تجربة الذات القارئة مع موضوعها، ويُظهر مستواها، واستراتيجيتها، وكفايتها التأويلية وآفاقها المعرفية، وحدود بلاغتها.

تأسيسا على ما سبق؛ إنّ التأويل نصب للدلالة وخروج بها إلى الظهور، ومن المضمر على البروز لأنه غوص لاستنباط ما يمكن أن يفصح العقل لما في نص من مغالق، والتأويل هوإمكان عقلي لا ينضب وانجاز فكري هائل....

لا مراء في أن العقل أكبر من كل تأويل مهما حوى من معان ودلالات، لأنه ينبغي على التأويل أن ينسجم مع مقررات العقل بوصفه نظاما ونسقا من المبادئ والمسلمات التي ينبغي أن ينصاغ لها الفهم ليس هذا فحسب لكنها الدلالة العقلية هي التي تسوغ حالة الاختلاف أوالغموض أوالانحراف عن الأصل المعرفي ألا وهوالعقل. ويتقدم العقل على سائر الأنظمة المعرفية وجودا يقينا، لأن أدلته راجحة على غيرها ومتفوقة، لأنه مزود بمعارف مختلفة، ومبادئ علمية ترشده على اكتساب المعارف مستدلا بمبادئ عديدة.

"فالعقل التأويلي لا يستقيم وجوده عقلا مختلفا إلا وهو يتعاطى المعرفة / الحقيقة باعتبارها أصلا أو حقيقة أولى يتم استدعاؤها أو يرجى القبض عليها، بل هو بحث عن حقيقة /حقائق متخيلة غير قابلة للظهور أو التجسّد حقيقة واقعا فتُستنزف أوتُقتل بحثا واكتشافا "[7] .

بناء على ما تقدم يظهر لنا أن منتوج العقل غير منته لا محالة، والفهم متجاوز متناقض بين الناس، ومن ثم ننظر إلى الأشياء ونفسرها ونفهمها على نحومختلف والحقيقة التي تتضح لنا مما سبق هي أن مشكلة الفهم متأصلة في قلب مشكلة التفسير، فمشكلة الفهم تبدأ من الإمكانية الدائمة لتعدد التفسيرات واختلافها، غير أن ذلك لا يعني أن مشكلة الفهم يمكن حلها بالتواصل إلى تفسير واحد موضوعي ونهائي [8].

لم يغفل القدماء من الفلاسفة ومفكرين عرب وغيرهم ومن سائر الأمم عن عظمة العقل الإنساني وعن هذا الجوهر الذي يتميز به الإنسان. فقد أولى ابن خلدون منزلة رفيعة للعقل "هذه المعاني التي يحصل بها ذلك لا تبعد عن الحس كل البعد، ولا يتعمق فيها الناظر بل كلها تدرك بالتجربة وبها يستفاد، لأنها معان جزئية تتعلق بالمحسوسات وصدقها وكذبها، ويظهر قريبا في الواقع، فيستفيد طالبها حصول العلم بها من ذلك، ويستفيد كل واحد من البشر القدر الذي يسر له منها مقتنصا له بالتجربة بين الواقع في معاملة أبناء جنسه، حتى يتعين له ما يجب وينبغي فعلا تركا "[9]

قد محص رائد الفكر الاجتماعي دواعي التفكير، والشروط المثلى في تطوير العمليات الذهنية (الفهم) فاستخلص أن العقل التجريبي الذي يحصل بعد العقل التمييزي الذي تقع به الأفعال، ثم يليها العقل النظري الذي يستقرئ ويستدل على العلوم والمعارف بالمكاشفة والاستنتاج. وقد قسم العقل إلى:

- عقل تمييزي (وحدد له مرتبة دنيا،لأنه يضطلع بالتمييز بين الإنسان وسائر المخلوقات المتبقية).
- عقل تجريبي (وقد وضع له المرتبة الوسطى، لأنه يتكفل بتنظيم الحياة الاجتماعية للإنسان).
- عقل نظري (وقد سيّده على القسمين المذكورين بوصفه أرقى ملكات الإنسان).

من الواقع والمعلوم أن الناس درجات في الفهم والعلم، فأصحاب العقول الراجحة من أهل العلم والروية فإن البراهين اليقينية هي التي تأزهم وتوجههم نحوالتأويل الصحيح والاستنباط القويم. "لا يحتاج تشكيل المعنى إلا إلى قوة الحجة ونصاعة الدليل استنادا إلى مبدأ الحوار ثقة في قدرة العقل الإنساني على فهم الوحي والتمييز بين ثوابته ومتغيراته، أما تغيير الواقع ليلائم نموذجا متخيلا متصورا لواقع سابق فيحتاج إلى 'القوة' التي تتجلى في الخطاب كما تتجلى في الفعل: يتغير المعنى بإعمال الفكر والجنوح إلى الإقناع بأسلوب الحوار " [10].

يغدو التأويل في كثير من الأحيان سلطة تتحكم في النص لتقرر المعاني التي يراها المؤول مناسبة أوتكون وليدة البيئة التي يعيش فيها كما قد تكون التأويلية التي تعتني بدلالات النص هي سبب التخريجات التي تنأى عن حقيقة ما أراد الكاتب.

كما "إن كثيرا من الاتجاهات التأويلية يمكنها أن تحول نفسها إلى سلطة تتقرر من خلالها حياة أوموت المشاريع التأويلية التي سبقتها، أو تتزامن معها أوتأتي بعدها؛ فهي تفرض نهجا محددا وأدوات قرائية تناسب طرحا معينا، ومن خلاله تلغي بقية الاتجاهات أو تنتقدها وتفرض عليها حصارا جديدا " [11].

بقليل من التأمل ندرك أن الذين يستعينون بالعقل لإدراك المعارف، هم العلماء والراسخون في العلم وهم أهل التأويل لأنهم عقلاء الأمة وحكماؤها، لتميزهم بطريقة خاصة في إدراك أسرار التأويل والتوصل إلى مغاليقه عن طريق التأمل العميق والاستدلال المحكم، واعتمادهم النزاهة العلمية التي تفرض عليهم الاعتراف بالحقيقة كيفما كانت ومن جميع المصادر لأن "الحكمة ضالة المؤمن، وأينما وجدها أخذها ".

وبما أن "الراسخين في العلم ملزمون بالتأويل الصحيح الذي يناسب العقل وطبيعة الكائنات، فالعلوم العقلية من أهم أغراضهم. وما دامت تأويلاتهم عقلانية فلا

يهمهم التأويل المذهبي أو التأويل الباطني لأنهما إما تحيزا وإما انحرافا عن واقع الوجود البشري "[12].

مهما يكن من تفاوت واختلاف في فهم التأويل على أشكال متناقضة بين الممارسة العقلية أحيانا، وبين إخضاع النص إلى نظريات معينة، فالذي ينبث يقينا أن المنتوج العقلي يعد أساس العملية الإدراكية للإشكالات التي يستند عليها الفهم.

ينبغي أن نلجأ إلى التأويل إذا احتجنا إلى صوت كبير يعرف بحدسه أضعاف ما يعرف بعقله، ويعرف بضميره أضعاف ما يعرفه الصغار بشهوتهم، ولم يتردد الأجداد قط في أن يشفعوا سؤال الكتب بسؤال الأصفياء من المؤولين [13].

كان صعبا ومتنوعا، مروعا النفوس ومفزعا العقول، كان عاصما من الفساد بشكل من أشكال الموثوقية العلمية التي لا تدعي الحقيقة المطلقة، كان اقرارا بالحاجة إلى حكم محدد في مواضيع معينة، دون مواربة ولا تحايل باعتماد التحليل الفيلولوجي الذي يعد عمد كل الجهود، وللغة أوجه كثيرة، وتكون وجها واحدا متعدد الملامح ومن لا يقبل له بالتحليل اللغوي فهو دخيل على التأويل.

أثارت قضية غزارة المعنى، انشغال العقل بالتفكير، هذه الغزارة المدرار تشوق بقدر، وتحير بأقدار لتبلغ الجهد في البحث والتنقيب وتدفعنا للسمو لاحتضان غيرنا واختزال الخلاف مهما اتسع.

لقد كانت "كلمة التأويل ذات وجوه، فهوفي مجال الفقه والتشريع غيرها في مجال علم الكلام، وهي في الفلسفة متميزة من هذين الوجهين، وهي في إطار الاهتمام بالوجه الإنساني -خاصة- ذات شأن مختلف "[14].

لقد ظل التأويل مشغولا بالتفرقة بين الواضح والغامض. بين ما يحتمل إلا وجها واحدا من الدلالة، وبين ما يحتمل دلالات غير منتهيه، ومن ثم فإن "جهد التأويل

سينصب على ارجاع حالة الاتصال، أي التصالح مع العقل، لأن العقل سيمون قاصر عن بلوغ منشد التواصل مع الاختلاف، وبما أن العقل هوالذي يعني الاختلاف، فلأن قانونه مؤتلف ومتسق، مما يعنى أن المعرفة العقلية متقدمة نحوالأصل لأنها تجعل من الفرضيات والأدلة أدوات لاستكناه الحقيقة التي نراها بعين العقل "[15].

إذا تشابكت الدلالات وتشابهت فإن العقل قادر على الفصل بينهما، فيما أكثر ما اجتمعت التأويلات على التناقض المعيب،فأفضت بالضرورة إلى الجدال العقيم، والتأويل حر "ما أكثر ما اجتمعت كلمتا التأويل والنظم في تراثنا العزيز، كلتاهما إغراء بالضم والتعاون والتعاضد بين أعضاء المجتمع والتحاور بينهم غير مفضين إلى الجدل المعيب.مبادئ التأويل في عرف القدماء مبادئ انسانية لا تشويه فيها، فالفرد ليس عبدا لغيره، ولا عبدا لنفسه، وكذلك التأويل، التأويل حر بين جماعة من الأحرار "[16].

التأويل حر لأنه درس المساءلة والاختيار، والمجتمع يبحث عنه كي يلملم شتات الاختلاف والخلاف.

الإنسان بطبعه وطبيعته الناقصة لا يرضى بالوضوح دائما، ولا يقبل الخفاء دائما، لا يرضى بغير التردد بينهما، وهذا التناقض والتفاوت هوالذي يحدد عظمة الإنسان، فالمؤول ليس هوالتأويل، بل هومرتبط بالتأويل ويعد منطلقا له، لأنه يقتضي فعلا وعملا يختلف عما يمكن أن يحل عليه التأويل "إن القارئ الذي يقترب من النص بهدف فهمه وافهامه مزود بمجموعة من الكفايات اللغوية، والمعرفية والتناصية والتأويلية، فهوليس صفحة بيضاء، وإنما مجموعة من الذخائر وشفرته التأويلية تلتقي مع شفرة المنتج في الكثير من المناحي. تبدأ رحلة المعنى والتأويل عند اختراق زمن ما قبل القراءة، وكذلك التحول من فضاء اللانص إلى فضاء النص. من الغياب إلى الحضور، حضور الذات والنص معا في لحظة زمنية وتأويلية محددة. ولوأمكننا تسجيل العمليات الذهنية التي تتم لحظة الفهم والتأويل لوجدنا خطاطات متعددة، تؤدي أحيانا إلى

تخريجات دلالية يطمئن إليها المؤَوِّل، وأحيانا أخرى يمكن أن نجد خطاطات مُشـــطَّبة أوملغاة.. " [17].

لا شك أن رحلة التأويل يشرع فيها المتلقي لحظة اصطدامه بدلالات النص المتفاوتة الغريبة، الخفية التي تحتاج إلى شرح وتفسير. وهكذا لواستطعنا تسجيل العمليات الذهنية التي تتم لحظة الفهم والتأويل لوجدنا عدة صعوبات تحبس الآفاق التأويلية إما لتعارضها مع توجهات النص، أولانسداد معارفنا عن الغايات الحقيقية المرجوة من النص، سيحاول المؤلف الوصول إلى غرض معين بتوجيه استراتيجية بنوع من الفطنة، وستكون التأويلات ممكنة عندئذ لعدة عوامل، وسيعمل على أن تستدعي الواحدة الأخرى في انتظار أن تصبح بينهما علاقة تعاضدية وتعاون لا علاقة تنافر.

والحال هذه أننا لا نجد في الخطابات التأويلية إلا ما اقتنع به المؤول، وما استقر عليه اجتهاده.

عمدت سائر العلوم المختلفة من العقلية أوالشرعية أوغيرها بالبحث العقلي عن حقائق المتعددة والمتنوعة من دينية أودنيوية وحاولت بكل الوسائل الكشف عن العصي، كما عمدت أيضا الفلسفة الاغريقية رغبة منها في استكمال النفس الانسانية بالسؤال الغريب والمخيف للتحري في المعارف الروحية والغيبية والظنية على حساب الطاقة الذهنية للإنسان الباحث.

وهكذا إن جهود الدارسين في مجال التأويل حظي برعاية كبيرة لما أثاره من جدل، لأنه شجع على استقلالية التفكير. فكان من شأن ذلك أن اعتمدت على مظاهر الاختلافات الفكرية، مما سهل الاعتماد على فعل العقل بوصفه مصدرا أساسيا من مصادر النشاط التأويلي.

إذا جزمنا أن التأويل هومحاولة لامتلاك النص واستكشاف ما بداخله من دلالات، فهوفي إحدى صوره،تجدد وتعدد في دلالته الافتراضية من حيث ربط السبب بالمسبب وإقران المعاني المختلفة القريبة والبعيدة والدلالات المتنوعة القاصة والذاتية بألفاظها وكلامها في مضمونها الكلي.

وبالتالي ففعل التأويل ممارسة عقلية ونشاط تفكيري داخل النص المؤول لأنه أحد المؤثرات والبدايات المحركة للعقل

والفهم "والنص لا يتوقف عن كونه محلا لتوليد المعاني واستنباط الدلالات ولا مجال لأحد أن يقبض على حقيقته "[18].

مآل ذلك أن إنتاج العقل (التأويل) قد يتعدد للنص الواحد ولا تنحصر المعرفة في القانون والقاعدة الواحدة، وستظل تعددية التأويل مَوْئِلَ (ملجأ، مرجع، مستقر السيل) الفكر والمعارف المتنوعة والتصنيفات المكثفة للأفكار البناءة التي تضطلع بالسؤال المتجدد.

وما دام الكلام يؤول ولا تأويل نهائي، لأن قدرات العقل على المحاججة والبرهان متعددة، وليس التأويل إيجاد معنى لشيء لم يكن له معنى، وليس هو كذلك نصب دلالة لموضوع يبحث عن دلالته وإنما هو إحالة من دلالة إلى أخرى، وإعادة تأويل معان سابقة وتأويل المعاني مجددا لمعنى له سوى أنّ الفهم يتجدد والعقل يبرهن دوما وينتج دائما. كما أنّ "القارئ بإمكانه أن ينتج مدا من القراءات أوالتأويلات تكون بدون حدود، وغير قابلة للمراقبة [19]، وبإمكاننا أن نقول إن النص يثير عددا من التأويلات غير منته، وليس بإمكاننا أن نمارس الاعتباطية في التأويل لأن الدليل عليها يظهره النص بقرائن متعددة عقلية، لغوية، معرفية، ايحائية أما التأويلات التي لا يعضدها دليل فهي رد وليس من منتجات العقل الذي يستند على البرهنة والتعليل.

إذن؛ يتأسس فعل القراءة على الفهم ومساءلة النص محاولة لإدراك المعاني والدلالات التي تتفجر فيه، ويتولد الفهم من جملة الأسئلة، والإجابة التي تدور في خلد المؤول. فالمعرفة التأويلية تسعى إلى امتلاك فهم متجدد للنص من طرف القارئ الحاذق الذي يسعى إلى تجاوز التفسير التقليدي والشرح والبسط إلى بلوغ يبين المعاني المتعددة الغائرة التي يحملها النص علما أننا سايرنا زمنية النص أم اختلفنا معها فوجب والحال هذه اجتهاد الفهم بمعارف وأدوات متعددة نستنطق بها كل مخبوء وخفي في بطون النصوص للاقتراب من فهم حقائقها. وذلك بتقصي البنيات التحتية الكامنة في هذه النصوص. "وهكذا يبدوالتأويل وجها آخر من وجوه تلقى النصوص الأدبية وعادة ما يوصف التأويل بأنه قائم على الاختلاف والتعدد فقد أشار الجرجاني إلى أن الانسجام في النص الأدبي لا يحصل من خلال انسجام المعاني، بل من اختلافها وتناقضها "[20].

إن المؤول الذي يجتهد في جميع المتناقضات والتأليف بين المختلفات من القضايا الأدبية لا بد أن ينفرد بمميزات عالية وخالصة تجعله عالي الإدراك والفهم من صنوف المهارات اللغوية والنصية والثقافية، بتداخل هذه المهارات مع بعضها البعض يتولد لديه حس تأويلي ومهاري ومعرفي أوسع وأشمل.

وهذه المهارات تتحدد في المعرفة؛ معرفة القراءة ومعرفة الفهم في الأخير معرفة التأويل، وفي الخلاصة يمكن التأكيد على أن مسار القارئ هو مسار استكشافي وتأويلي في آن واحد يعطي النص دينامية عالية.

سيظل التأويل تفاعل معرفي بين بنية ذهنية وبنية نصية وبنية سياقية، وبالتأليف بين هذه البنيات المختلفة يتم خلق بنية تأويلية فيها أشكال من الاختلاف والمزاوجة بين المتناقضات وليس الغاية المرجوة من التأويل أن يبحث عن مقاصد المؤلف وتجيش الأدوات ويحشد الإجراءات وليقرأ نية المؤلف، ذلك مطلب بعيد ومطاردة للوهم، وليس كذلك التأويل هوالقراءة العاقة لكل المعايير، وإنما هوممارسة

شروطه يجب اعتمادها، قد نحصرها فيما يقدمه النص من أدلة (لغوية، نحوية، بلاغية، ثقافية أدبية، سياسية وغيرها.....) وعندما تعجز هذه المستويات على تقريب معاني النص وبخاصة الأدبي الذي يوحي بالتعدد والتنوع، والذي يقبل بكل التخريجات التي تلائم المستويات المذكورة.

إذن يستدعيك النص إليه بالإغواء، فما الذي يطرحه علينا كي نبادر إلى تحسس جسده، وما الذي يعدنا به من أول وهلة حتى نوافق على مقاربته [21].

إذا عجزت المستويات الأوائل والثواني على تقريبنا من فهوم يتقبلها النص ليظهر ويكشف لنا عن باطنه، وأحسنا بالإعتام يلجأ المؤول إلى عناصر من السياق الخارجي للنص "هناك إذاً حرية قرائية وتأويلية يملكها القراء، ولكنها مقيدة بإرغامات العلامات النصية وبمعطيات السياق الخارجي، والثقافة التي ينتمي إليها ذلك النص" [22].

إن استنباط المعنى من النص ناتج من جملة أفعال قرائية وجهود ذهنية، تتساند فيها المؤشرات التركيبة بالمؤشرات السياقية، لأن المعرفة التي يمتلكها المؤول غير كافية، بل لا بد اجتماع عناصر مختلفة في الكفاءة التأويلية ليقبل المعنى المستنبط جملة الشروط والمؤشرات والأسقية المعرفية التي يحويها النص "لأن المعنى تعبير باللفظ عما يتصوره الذهن، أوهوالصورة الذهنية حيث تقصد من اللفظ"[23].

لكي يتحقق المقصد لا بد أن يحتمل اللفظ المعاني الناتجة، لأن القصد إلى معان معينة يقتضي شروطا، أبرزها أن يحتمل اللفظ ذلك المعنى، لهذا السبب أنكر الجرجاني على المؤولين بغير معرفة إسرافهم في التأويل، وجنوحهم إلى تفكير وجوه المعاني المتعددة مما يحتمله اللفظ ومما لا يحتمله، فهم يدعون المعنى السليم إلى المعنى السقيم.

في المقام الأول يمكن أن نعتبر أن النصوص الأدبية يمكن تأويلها بطريقة دلالية أونقدية، مع العلم أن هذه النصوص تؤهلها الوظيفة الجمالية للاستفادة من النهج التأويلي.

يجب التأكيد على أن "القراءة الدلالية تشترط تواجد القارئ النموذج، فهذا الأخير قارئ دلالي على كل حال، محايد إلى حد ما، تكمن مهمته في استخراج الانسجام الداخلي للنص أواستكشافه واستنباط الاحتمالات التأويلية الخصوصية للنص "[24].

إن ما يحيط بمسألة التأويل من تعدد دلالي، وتنوع في المعاني إذ تختلف عملية الفهم من مؤول لآخر، وتخضع القراءة بالضرورة والدرجة الأولى إلى المعرفة التي يمتلها المؤول، " والنصوص إنما تحجب في النهاية ذاتها وسلطتها وموضوعاتها ولهذا فإن قراءة النص قراءة جديدة نقدية، غير تقليدية تسهم في الكشف عن المحجوب أي تسهم في بناء علاقة جديدة بالذات والعقل والمعنى والعالم والغير "[25].

لا غرو أن النصوص ليست غاية بذاتها، بل تطلب بوصفها تقدم وسائل وامكانات للفهم، لأنها بشكل من الأشكال رؤوس أموال ثقافية، أومناجم دلالية يمكن التنقيب عن موادها المختلفة من امكانات معرفية مختلفة،، يحددها المؤول. كما يرى محمد بازي أنه "إن بدا لأول وهلة أن النص موضوع المقاربة يسير دلاليا في مسار واحد، لأن القراءة التأويلية القائمة على مقابلة العوالم والوضعيات والحالات بوسعها أن تمكن قارئها من اكتشاف إمكانيات كبيرة لبناء المعنى "[26].

ولن يقوم التباعد إلا بالمعرفة التي تعد الركيزة الأساسية في سير أغوار المقروء ومعرفة تنوع دلالته، وخاصة إذا كان أدبيا تتفاوت فهومه وتتنوع معاينة بحسب كل قراءة وتأويل، إذ النص الذي له طابع أدبي تأويلاته غير نهائية، حيث " ليس النص مساحة مسطحة تتكشف عن معناها، أوعمقا يختبئ فيه المعنى، إنما هوحيز تتعدد سطوحه وعمق لا قرار له وليس النص نسقا ينغلق على ذاته، بل إنه وإن كان له نظامه

وسياقه وإن كانت له قواعد انبنائه واشتغاله، فهو يبقى مجالا مفتوحا، يشكل مساحة يمكن التسلل من فجواتها، للكشف عن شرك الكلام وخديعة القول وتستر الخطاب"[27].

لا فكاك إذن من أن النص فضاء رحب ومساحة مفتوحة، فإن تأويله يتيح لقارئه الولوج إلى عالمه والتنزه بين منعرجاته والتعرف على تضاريسه، فإذا كانت النصوص متفاوتة منها من يقبل قراءات، ومنها من لا يسلم معانيه، ومنها من يخضع للقراءة الأولى، كذلك الاستعدادات التي يتهيأ بها كل مؤول تسمح بالاختيار والاغتراب "ولكن لونظرنا إلى النص من حيث علاقته بقرائه، فلن نجد سوى الاختلاف والتعدد، إذ لا تطابق بين قراءة وأخرى لذات النص كما هو محقق عند من ينظر ويتفحص، ولهذا لا يتكرر النص المقروء أي لا يشرح ولا يفسر إلا كاختلاف" [28].

وإذا ما توسط النص بين الذات والموضوع ظهرت ضرورة تأويل النص الذي يقوم بدور المرآة المزدوجة، لأنه يعكس رغبات الذات اللانهائية وتصوراتها الذهنية، كما يعكس واقع العالم.

يوافق التأويل بين الذهن والنص حتى يسهل علينا فهم النص ويحقق لنا المعرفة، كما يوافق (التأويل) بين النص والواقع حتى يصبح الواقع تحت السيطرة العقلية للمؤول، وحين يحقق التوافق بين العقل والنص وهذا التماهي بين النص والواقع تتحقق وحدة المعرفة وحينئذ لا يتعارض العقل والنقل لأن نشاط العقل وقوة الوحي وجمال الطبيعة وفنية الابداع أنساق يكتشفها التأويل.

وخلاصة القول، ما من مؤول إلا يسعى جاهدا لينسجم مع النص ومع منظومته الفكرية والمعرفية، ومهما اختلفت التيارات التأويلية القديمة والحديثة فإنه ينبغي أن لا يغيب عن ذهن القارئ أن لكل تيار تأويلي مشروعه الفكري والسياسي والثقافي والقانوني الخاص به. والتأويل الذي لا يستند على مشروع فكري مؤسس تحكمه قوانين وتدعمه إجراءات فهو لهو وعبث.

كما أن مسألة التأويل مرتبطة بالقراءة وبالمهارة، وليست الدربة التي تسعى إلى اظهار زوايا معتمة من النص، وإنما القراءة القادرة على دعم التغيرات والبياضات المتبقية في النص.كما يقوم التأويل بدور مهم لأنه يطلق الفكر عامة ليعود حرا قادرا على التوليد وتعدد الرؤيا، وتنوع الأفكار، والتجرد إلى حد ما من ظروف الزمان. لأنه يسهم في تحقيق الوعي الناضج القادر على التجاوز والمخالفة.

التأويل إذن، تحول عن التلقين والقبول إلى الشجاعة في المخالفة وإقامة الحجة وإصدار الأدلة، لممارسة الإبداع والمشاركة في العطاء الإنساني.

عرفنا في ثقافتنا الاجتهاد، والتأويل رديف ومدعاة له لأنه زاخر بالمعطيات العلمية والأفكار المتضاربة والمشكلات المتزايدة مع الأيام، تستدعي استحداث فهم يناسبها وتأويل يسايرها. والفهم ظاهرة معقدة لأنه ذهني وداخلي، يبنى حول طاقات المؤول ومعطيات اللغة، والموضوع الذي يتناوله النص في مواجهة الحياة المتغيرة.

وعليه إن التأويل يقوم على التعدد والتنوع في الفهم، والاشتباه في الواقع ولا يعترف بمعنى واحد للنص، ولا فهم واحد للدلالة لأن القارئ ينطلق من مسلمة واحدة وهي مفارقة قصدية النص لقصدية المؤلف ولا يرجع ذلك إلى أبعاد في اللغة أوالمستويات في الواقع، بل أعماق الشعور ومستويات المعرفة.

*** *** ***

الهوامش:

[1] هيوس لفرمان، نصيات بين الهيرمينوطيقا والتفكيكية، ترجمة،حسن ناظم وعلى حاكم صالح، دت، دط، ص149.

[2] أبوحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، دار اقرأ، بيروت، ط1، 1981، ص 14.

[3] ينظر: فان ديك :علم النص - مدخل متعدد الاختصاصات -، تر: سعيد حسن البحيري، القاهرة، ط1، 2004، ص281.

[4] ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة (المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب)، الكويت، ع164، 1992، ص226.

[5] Gadamer.H. G, Méthode et vérité ,seuil, paris ,1976,p 148.

[6] ينظر : Gadamer.H. G, Méthode et vérité ,p137.

[7] عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة نحومشروع عقل تأويلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، 2008، ص 157.

[8] ينظر :سعيد توفيق، في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2002، ص 96.

[9] عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق أبي عبد الرحمن عادل بن سعد، الدار الذهبية للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ص 509.

[10] نصر حامد أبوزيد، الخطاب والتأويل، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب، ط3، 2008، ص189.

[11] محمد بازي، التأويلية العربية نحونموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، 2010، ص 144.

[12] عبد المجيد مزيان،العقلانية الرشدية في علوم الشريعة مؤتمر ابن رشد - الذكرى المئوية الثامنة لوفاته – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج02، ص327.

[13] ينظر: مصطفى ناصف، مسؤولية التأويل، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 2004، ص10.

[14] مصطفى ناصف، مسؤولية التأويل، ص 16.

[15] هيثم سرحان، استراتيجية التأويل الدلالي عند المعتزلة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2003، ص149.

[16] مصطفى ناصف، مسؤولية التأويل، ص10/09.

[17] محمد بازي،التأويلية العربية نحونموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات،ص147.

[18] علي حرب، التأويل والحقيقة -قراءات تأويلية في الثقافة العربية -، دار التنوير، ط1، 1985، ص 53.

[19] عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، دراسة تحليلية نقدية في النظريات العربية الحديثة، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، 2007، ص83.

[20] ينظر: محمد عزام، التلقي والتأويل بيان سلطة القارئ في الأدب،دار الينابيع، ط1، 2007، ص 205.

[21] ينظر : سعد كموني، إغواء التأويل واستدراج النص الشعري بالتحليل النحوي، المركز الثقافي العربي، ط1، 2010، ص06.

[22] محمد بازي،التأويلية العربية نحونموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، ص55.

[23] أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، د ت، ص 48.

[24] المصطفي الشاذلي، إشكالية التأويل والترجمة في ضوء سيميائيات التلقي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات رقم ومحاضرات رقم 47، الكتاب: الترجمة والتأويل، 1995، ص46.

[25] علي حرب، الممنوع والممتنع نقد الذات المفكرة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط04، 2004، ص 217.

[26] محمد بازي، تقابلات النص وبلاغة الخطاب نحوتأويل تقابلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط01، 2010، ص11.

[27] عي حرب، نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، ط03، 2000، ص22.

[28] المرجع نفسه، ص25.